УДК 297

المقال الأصلي
Оригинальная статья
Original Paper

من التسامح الديني إلى التعارف الثقافي بين الأمم: قراءة في المفاهيم

أحمد مونة
جامعة عبد المالك السعدي
ahmed.mouna2011@gmail.com

Received: June 2, 2019
Reviewed: June 16, 2019
Accepted: June 21, 2019

Поступила в редакцию: 2 июня 2019 г.
Одобрена рецензентами: 16 июня 2019 г.
Принята к публикации: 21 июня 2019 г.

تم الاستلام: ٢ حزيران ٢٠١٩
تم التقييم في ١٦ حزيران ٢٠١٩
تم القبول في ٢١ حزيران ٢٠١٩

الملخص

ومفهوم الثقافة،وهو المفهوم الذي تطفح به كتابات المتخصصين من الباحثين في علم الاجتماع والأنثروبلوجيا، بالإضافة إلى المهتمين بتحليل الخطاب الديني الشرعي.

في ضوء هذا الاستشكال ستعمل هذه الورقة أولاً، على البحث في مفهوم التسامح، هذا المفهوم الذي نرى أنه ينطوي على جملة من الآفات ، نعتقد أنها قد تشكل عوائق جمة في ممارسة عملية التعارف على الصعيد الكوني، وبمقتضى هذه المعاودة سنكشف من جهة عن أهم الاعتراضات التي تتوجه لهذا المفهوم، ومن جهة ثانية سنقترح مفهوما آخر يحفظ من الناحية الإجرائية لكل ثقافة ذاتيتها وخصوصيتها وشرعيتها في الحضور في هذا العالم بوصفها حقا ثابتا للجماعة التي تنتمي إليها، أعني مصطلح " واجب المعاملة بالمثل ".

كما سنعمل في سياق معالجة هذا الموضوع على بيان أصول مفهوم الثقافة الذي نعتقد أنه يأخذ في اللغة العربية مضمونا متميزا؛ إذ لما تغافل المشتغلون بهذا المفهوم عن مضمونه التقويمي المنصوص عليه في اللغة العربية أفضى بهم الأمر إلى الجنوح به إلى لوازم دلالية تنأى به بشكل ملحوظ عن دلالته الأصلية اللغوية، وتُضَيِّق بالتالي من آفاقه الإبيستيملوجية ونجاعته الاستدلالية. وبمقتضى هذا الرَّدِّ، سنبين كيف ينفتح الفعل "ثَقَّفَ" على مضمون تقويمي يعيد له نجاعته الإجرائية، بحيث يرتقي معه المكون القيمي ليصبح مقوما مركزيا في مفهوم " الثقافة ".

مونة، أحمد. (2019). من التسامح الديني إلى التعارف الثقافي بين الأمم: قراءة في المفاهيم. الدراسات العربية الأوراسية، ٧، ص ص ٧٥-٨٩.

وفق هذا الأفق المنهجي، سنبين، بأسلوب استدلالي، كيف أن بث الوعي بين المشتغلين بالنظر في موضوع موقع الدين في عالم متعدد الثقافات، وضمنه الدين الإسلامي بضرورة الانتقال من الاشتغال بمفهوم التسامح الديني إلى الاشتغال بمفهوم التعارف الثقافي.
الكلمات المفتاحية: التعارف الثقافي، التسامح الديني، التسامح، ثقافة، تعارف

للاقتباس: مونة، أحمد. (2019). من التسامح الديني إلى التعارف الثقافي بين الأمم: قراءة في المفاهيم. الدراسات العربية الأوراسية، ٧، ص ص ٧٥-٨٩.

ОТ РЕЛИГИОЗНОЙ ТОЛЕРАНТНОСТИ К КУЛЬТУРНОМУ ЗНАНИЮ НАРОДОВ: ПРОЧТЕНИЕ КОНЦЕПЦИЙ

Ахмед Муна

Университет Абдулмалика Ас-Саади

ahmed.mouna2011@gmail.com

Аннотация

Концепт «культура» изучается социологами, антропологами. Данный термин представляет интерес также при анализе религиозного дискурса.

В этой связи, во-первых, будет рассмотрена концепция толерантности, которая имеет свои недостатки, во-вторых, будет предложена модель, при которой сохраняется самобытность культуры, в-третьих, будет рассмотрена концепция культуры в арабском языке, которая, по нашему мнению, имеет особое лингвистическое содержание. В заключении, рассмотрев вопрос о роли религии, особенно ислама, делается вывод о том, что необходимо отказаться от понимания религиозной толерантности в пользу понятия "культурное знание".

Ключевые слова: *культурное знакомство, религиозная толерантность, культура, толерантность, знакомство.*

Для цитирования: *Муна, А. От религиозной толерантности к культурному знанию народов: прочтение концепций // Арабистика Евразии. 2019. № 7. С.75-89. (на арабском языке)*

FROM RELIGIOUS TOLERANCE TO CULTURAL ACQUAINTANCE AMONG NATIONS: READING CONCEPTS

Ahmed Mouna

Abdelmalek Assaadi University

ahmed.mouna2011@gmail.com

Abstract

The concept of "culture" is studied by sociologists and anthropologists. In addition, it is of interest in the analysis of religious discourse.

In this regard, firstly, the article covers the concept of tolerance, which has its drawbacks, secondly, discusses the model, which preserves the cultural identity; thirdly, the concept of culture is reviewed in the Arabic language, which, in our opinion, has a special linguistic content. In conclusion, considering the role of religion, especially Islam, it is concluded that atttention to religious tolerance should be replaced by the concept of "cultural knowledge".

Keywords: *cultural acquaintance, religious tolerance, culture, tolerance, acquaintance*

For citation: *Mouna, A. (2019). From religious tolerance to cultural acquaintance among nations: reading concepts. Eurasian Arabic Studies, 7, 74-88. (In Arabic)*

المقدمة

يعتبر سؤال "التعدد الثقافي" في عالم اليوم سؤالا مركزيا في ضوء التوترات والنزاعات اللذين يسمان العلاقات البينية بين بعض الجماعات والشعوب ذات الانتماءات الإثنية أوالعقدية أو المذهبية، وبشكل عام الثقافية المتباينة، حتى بات البحث عن صيغ لرأب هذا الصدع وخلق مناخ من الود والوئام بين هذه الجماعات المتنافرة مطلبا حيويا ينبغي أن تُسْتَنْهَضَ من أجله الهِمَمُ. وليس من شك في أن السبيل الأشهر الذي يرى الجميع ضرورة إعماله في هذا السياق لرفع موانع التساكن ومعيقات التعارف بين أهل هذه الثقافات هو تبني قيمة "التسامح" بالمعنى لمتداول اعتقادا من الجميع بأن تمثل هذه القيمة والانضباط لمقتضياتها هو السبيل الأنجع لتحقيق أرقى مستويات التعايش بين الثقافات. ولكن على الرغم من الأهمية المركزية لهذا المفهوم فإننا نرى عدم كفايته للوفاء بشروط التعارف الإنساني الحق وذلك لما ينطوي عليه هذا المفهوم من مضامين تمس في نظرنا جوهر العلاقة بين الأفراد والجماعات الذين ينتمون إلى ثقافات مختلفة، فما هي الدلالة الأصلية اللغوية لمفهومي "التسامح" و"الثقافة" في عالم أضحت فيه بعض الرؤى المنغلقة للهوية تهدد الثقافات الإنسانية في تنوعها وغناها، أي تهدد حقيقة التعدد في الصميم، وتضاد بالتالي

مونة، أحمد. (2019). من التسامح الديني إلى التعارف الثقافي بين الأمم: قراءة في المفاهيم. الدراسات العربية الأوراسية، ٧، ص ص ٧٥-٨٩.

العيش المشترك وكل قيم الحوار والاختلاف ؟ وكيف السبيل من ثم إلى استعادة الإنسان اليوم لهذه القيم التي تعد الضامن الأوحد لمجتمع عالمي يسوده الأمن والطمأنينة.

المنهجية ومادة البحث

سنسلك في الإجابة عن هذا الإشكال المطروح مقاربة تحليلة وبأسلوب منطقي استدلالي، نتوسل من خلالها الوقوف على المضامين الدلالية لمفهومي؛ التسامح والثقافة والاشتغال بتقليب النظر فيهما من أجل نقد الأقوال التي شاع استعمالها في دراسة الثقافات الإنسانية، وذلك في أفق رسم خطاطات لسبل العيش المشترك بينها، وإماطة اللثام عن جملة من الحقائق التي لا يتفطن إليها العديد من الباحثين بهذا الشأن؛ وميزة الأسلوب المعتمد هو أنه أسلوب لا يسعى إلى عرض الآراء والمواقف بشكل مرسل غافلا أو متغافلا عن خلفياتها وآثارها، بقدر ما يسعى إلى استشكال هذه الآراء، وتقليب النظر في مدى رصانة وعلمية هذه المواقف، وفي سياق هذا الاستشكال سنعمد إلى بحث ما يلي:

مفهوم التسامح،

مفهوم الثقافة،

سؤال الحوار والاختلاف،

سؤال المساواة بين المتخاطبين،

ضوابط الحوار الاختلافي،

مبدأ التفاضل بين الأديان، وأخيرا قاعدة التفاضل في الدين والمساواة في التعامل.

1 - في مفهوم التسامح "La tolérance".

ينطوي مفهوم التسامح على صعيد الخطاب الديني وعلى مستوى التفاعل الاجتماعي على جملة من المعاني حاصلها:

" القدرة على: الحمل والتحمل والصمود والمقاومة،

علما بأن الأصل في هذا الفعل المدلول عليه بالفعل اللاتيني "tolerare" أن الفرد أو الجماعة يتحملان الأمور الضارة، مع معاناة هذا التحمل، والصبر فيه، إلى جانب إظهار الليونة والتساهل في ممارسته (معجم تحليلي عربي، ص 305، 306)[1].

وهذا المعنى عينه هو ما يفيده الفعل "سامح أو تسامح"، الذي يعني غفر وتجاوز وتحمل ... وهي كلها معاني تتقاطع لتفيد بأن مبنى التسامح على وجود تفاوت بين طرفين غير متكافئين يشعر معه الطرف المُتسَامِح أنه في موقف أعلى، لكونه يتنازل عن حقه في محاسبة غيره، ويتحمل بفعل سلوكه وموقفه هذا أخطاء هذا الغير وزلاته وعيوبه ، فيكون بذلك الطرف المتسامَح مَعَهُ نازلا منزلة دَوْنِيَّة، يشعر معها بأنه يحيا تحت رحمة وشفقة المُتسَامِح القوي، لأنه في تقديره يتحمله ويتحاشى لومه ومحاسبته على معتقداته ومواقفه المخالفة و المزعجة.

(1) انظر حمو النقاري . (2018). مفاهيم التفلسف الغربي ، معجم تحليلي عربي ، ص 305، 306 ، إبداع ، بيروت.
مونة، أحمد. (2019). من التسامح الديني إلى التعارف الثقافي بين الأمم: قراءة في المفاهيم. الدراسات العربية الأوراسية، ٧، ص ص ٧٥-٨٩.

وبمقتضى التطور الذي حصل في مجال حقوق الإنسان والحريات العامة، أضحى معنى التسامح محمولا على " حق الفرد في أن يحيا داخل الجماعة وفق آرائه ومعتقداته وقيمه الخاصة، وإن كانت هذه الآراء معارضة لآراء ومعتقدات وقيم الجماعة ... [أو حتى] مُسْتَهْجَنَة " (معجم تحليلي عربي، ص 306) من قبل هذه الجماعة ، وخاصة في المسائل ذات الصبغة الدينية التي يأخذ التسامح بإزائها معنى الانفتاح فيها.

إن التسامح بهذا المعنى كذلك هو الذي نجده في معجم الفيلسوف الفرنسي أندري لالاند Andre Lalande حيث يؤكد في معجمه الفلسفي النقدي أن سلوك التسامح La tolérance يقوم على اختيار الفرد طريقا في تحمل غيره الذي يحمل تهديدا لحقوقه الأساسية، دونما احتجاج عليه، مع امتلاكه القدرة على قمع هذا الغير وردعه. ومن هنا أخذ معنى التسامح في القانون الفرنسي معنى انفتاح سلطة من السلط ـ بفضل بعض التقاليد ـ في التعامل مع بعض المخالفات التي تنتهك القوانين أو الأنظمة المعتمدة والتي تعد المسؤولة عن إعمالها وتطبيقها في المجتمع (Lalande, 2002, p. 1133). ويشير لالاند بهذا الصدد إلى أن تطور مفهوم التسامح الذي ظهر في أوربا في أثناء الحروب الدينية بين الكاثوليك والبروتيستانت والتي انتهت بتسامح الكاثوليك مع البروتيستانت وبالمقابل تسامع هؤلاء مع الكاثوليك، أضحى مطلبا ملحا بالنسبة لكافة الأديان والمعتقدات ليتوسع في القرن العشرين ليفيد معنى ممارسة الفكر الحر(Lalande, 2002, p. 1133)، فأضحى بذلك هذا المعنى دالا على استعدادات الفرد في ترك كامل الحرية للغير من أجل التعبير عن آرائه على الرغم من عدم مشاركته فيها (Lalande, 2002, p. 1133).

يتحصل من هذه المعاني التي ينطوي عليها لفظ التسامح، وخاصة ما تعلق منها بتحمل المتسامح لغيره والصبر عليه والشعور من ثم بالفوقية في معاملته، بأننا في حاجة ماسة إلى تبني حقيقتين اثنتين في النظر إلى مفهوم التسامح :

– الحقيقة الأولى، كون الاختلاف بين بني الإنسان حقيقة وجودية ملازمة لهم لا محيد لهم عنها،

– والحقيقة الثانية، كون الطريق إلى التعارف بين الجماعات الإنسانية لا يمكن التوسل إليه إلا بممارسة الحوارية في مستوييها التبليغي والتهذيبي، أي على مستوى تبليغ المعارف ومستوى تقويم المواقف. وهو ما يستدعي تبني نموذج فعال في تقرير أخلاقيات للتخاطب بين المختلفِين ترتفع معها كل أسباب التعالي والاستعلاء التي يستشعرها أحد المتخاطبين المختلفين إزاء صاحبه، لاعتبارات قد لا يكون لها تعلق بطبيعة مضامين المنظومات القيمية المتقابلة في ذاتها، ولكن أحيانا لمسوغات فكرانية إيديلوجية تعمد إلى الرفع من قيمة منظومات بعينها اعتبارا لاستنادها إلى حضارة القوة التي تنتمي إليها، لا إلى قوة المنظومة القيمية لهذه الحضارة في ذاتها. وهو ما يتيح إمكانية استشكال الزوج الاصطلاحي : حضارة القوة / وقوة الحضارة ، والنظر في أي ضرب من القوة ينبغي التعويل في تخطي آفات العنف التي تطال عملية التفاعل بين الأمم. هل على قوة الحضارة في إنتاج القيم، أو على حضارة القوة في فرض هذه القيم ؟ حُيَالَ هذا الإشكال يجدر بنا أن نتساءل عن مقومات مفهوم الثقافة التي تمثل بالنسبة للجماعات الإنسانية روح هويتها، وماهية

وجودها، والتي يفضي فساد التعاطي معها إلى آفات جمة قد تقوض كل أسباب التعارف بين الجماعات المختلفة.

2 ـ في مفهوم الثقافة

ليس يوجد من شك في كون مفهوم الثقافة ذي صلة بمكونات منظومات القيم التي تعبر عن هويات الجماعات البشرية التي تنتمي إليها ، وعموما فإن أحد معاني الفعل " ثَقَّفَ " في اللغة العربية حسب اللغوي ابن منظور يدور على معان تتغير بحسب موضوع هذا الفعل

ثقف الشيء ، أقام المعوج منه وسواه،

ثقف الإنسان، أدبه وهذبه وعلمه،

ثقف المعوج، سواه وقومه،

ثقف الأخلاق ، أصلح السلوك والآداب،

ثقف الشخص، صار حاذقا فطنا،

يستفاد من كل هذه المعاني أن الثقافة هي كل ما يصبح به الإنسان سويا مستقيما ومهذبا ، بل وحاذقا فطنا في التعاطي مع قضايا الحياة ، سواء على المستوى الفردي أم الجماعي.

إن الثقافة المدلول تأخذ معنى البِنْيَة المرجعية التي بمقتضاها يتمكن المجتمع من معايرة سلوكيات أفراده، لأن تقويم الاعوجاج أو تهذيب الأخلاق أو إصلاح السلوك يؤول في نهاية المطاف إلى فعل التربية؛ لأن التربية هي التي تختص بالنظر في آليات تغيير السلوك لدى الكائن الإنساني، وأخذا بهذا التقويمي لفعل التربية، عرفها بعضهم بأنها " تغيير في السلوك يحدثه راشد على صغير ". ولما كانت التربية هي تغيير في السلوك كان لابد لها من مرجعية وأساس نظري تستند إليه في ممارسة الفعل التربوي فتعرف من ثم التمييز بين السوي والمعوج ، حتى تعزز الأول وتسوي الثاني . ومعلوم أن الأديان السماوية بشكل عام هي التي اختصت بدورها في رسم مسار الإنسانية تخليقا وتهذيبا وتوجيها، لذلك اعتُبِرت أمهات الأخلاق من القيم الكونية التي لم يقع نسخها أو تغييرها بالنسبة لكافة الشرائع والأديان. وإذا تقرر هذا، ظهر بأن ثمة تداخل عميق بين الثقافي والديني، خاصة متى علمنا بأن جملة العقائد والسلوكيات، بل وكل المخزون النفسي الذي يتكون وينمو لدى الفرد داخل الجماعة، يشكل التدين فيه قسما كبيرا، حتى أضحى الاعتداء على ثقافة جماعة من الجماعات هو بمثابة ممارسة العنف على هويتها الدينية. وإذن كيف السبيل إلى تدبير الاختلاف الثقافي بين الأمم ؟

3 ـ سؤال الحوار والاختلاف.

من المعلوم أن مَبْنَى الحوار في اللغة الإنسانية على العلاقة التخاطبية بين طرفين اثنين هما المخاطِب والمخاطَب، كما أن مدارها على توجيه أحد المتخاطبين كلاما إلى الآخر بقصد إفهامه مدلولا معينا، أو مقصودا مخصوصا (طه، 1998، ص 237)، متوسلا في ذلك بأساليب في التبليغ وقواعد في التخاطب تجعل من عملية المخاطبة برمتها شكلا من أشكال التعاون في بناء المعارف الإنسانية. ينطلق الحوار بما هو تردد للكلام بين متخاطبين اثنين أو أكثر من مبدأ عام مفاده، أن كل

قول يعتبر دليلا على مدلول معين يتقصده المتكلم، إما بغرض تحصيل اليقين بخصوص أمر يكون موضوع نظر المتكلم نفسه، وإما طلبا منه لإقناع غيره والتفاعل معه حسما للمنازعة التي قد تنشأ عن تباين المعتقدات والرؤى والمواقف واختلاف مضامينها ومكوناتها. وبمقتضى هذا الحسم ينتقل المخاطب إلى توجيه خصمه واستنهاض همته للعمل بمقتضاها أو الإقرار بحق الغير في تبنيها وذلك بفضل القيم التي تواكب عملية التفاعل الخطابي ذاك ، مما يعني أن حقيقة الحوار أو التخاطب تقوم على أركان ثلاثة :

– ركن التبليغ؛ وتقوم على نقل مضامين الكلام، وتحكم هذه العملية جملة من القواعد تسمى قواعد التبليغ ،

– ركن التدليل؛ ومبناه على الحجاج عن هذه المضامين والسعي إلى إقناع المخاطب بنجاعتها وفاعليتها المعرفية، وتتحكم هذه العملية طائفة من القواعد الاستدلالية ،

– ركن التوجيه؛ ويقوم على حفز المخاطب على تمثل جملة المواقف والقيم التي تنشأ عن هذه الممارسة الحوارية برمتها، وتقنن هذه العملية مجموعة من القواعد والضوابط القيمِيَّة والأخلاقية (طه عبد الرحمان، 1998،ص 237 ،239). والحوار الديني الذي يعد شعبة من شعب الحوار الاختلافي لا يخرج عن حقيقة تقررت لدى المحققين من النظار حاصلها؛ أن " الأصل في الحوار هو الاختلاف".

ولبيان ذلك نتساءل : ما حقيقة الحوار الاختلافي وما حدوده المفهومية ؟

4 ـ الحوار الاختلافي، حدوده المفهومية.

إن مفهوم الحوار الاختلافي يقوم على مقتضى اجتماعي، الأصل فيه أن مبنى الحوار على الاختلاف أو التضاد على اعتبار أن المختلفَيْن هما المتقابليْن على جهة التضاد (طه ،2002، ص 28)؛ يكون أحدهما مدعيا لدعوى يعتقدها " ويعتقد صحة هذا الاعتقاد وما يلزم عنه، وصحة الدليل الذي يقيمه على رأيه . كما أنه يعتقد الانتقاد الذي قد يوجهه إلى رأي الغير، ولا يقتنع برأي الغير إلا إذا اعتقد أن هذا الرأي مقبول وأن عناصر الدليل الذي أقامه هذا الغير عليه مقبولة، وأن تدليله بها مقبول هو بدوره "(طه ، 1987، ص 31-30).

و" الثاني يُطلق عليه اسم المعترض وهو الذي لا يقول بهذا الرأي المخصوص ولا يعتقده " (طه، 2002، ص 29). إن الجماعة الحوارية قد تتكون ابتداء من فردين عاقلين، مرورا بمجموعتين صغيرتين لتنتهي إلى الحوار بين جماعتين واسعتين؛ من مثل "الحوار بين دينين مختلفين" أو "الحوار بين حضارتين متباينتين"، وأخذا بقيد الضدية في معقولية الممارسة الحوارية، يتبين أن الحوار يقضي بالأساس بوجود المنازعة لا بوجود الموافقة، وبظهور الاختلاف لا بحضور الائتلاف، مما قد يطرح إشكالا حول إمكانية الوصل بين مفهوم الجماعة بوصفه معطى دال على الانسجام والتوافق، ومفهوم المنازعة بكونه معطى دال على المنافرة والمناكرة، بل وممارسة العنف في بعض الأحيان.

ولكن إذا علمنا بأن الحوار الاختلافي يتيح إمكانية دفع الاعتراضات أو الانتقادات التي يوردها أحد الجانبين المتحاورين على رأي أو دعوى الآخر بأدلة معقولة ومقبولة لديهما، ظهر معه أن كل أشكال المنازعة في الرأي إنما تُدفع بالدليل والحجاج والإقناع، لا بالسلطان والشبهة والإقماع، " فحيث لا يوجد البرهان لا يمكن أن يوجد إلا السلطان، وحيث لا يوجد الحوار فلا يمكن أن يوجد إلا الحصار والعنف الأشد " (طه، ص 34) .يقول Philippe Breton في كتابه الحجاج في التواصل: " أن تعرف كيف تحاجج لا يعد امتيازا وإنما ضرورة تخاطبية "، ويساءل بهذا الصدد قائلا : " ألا يعتبر عدم المعرفة بأساليب الحجاج أحد أكبر مصادر التفاوت الاجتماعي وعدم المساواة الثقافية ؟ والتي تزداد اتساعا وتفاوتا بفعل اللامساواة على المستوى الاجتماعي والاقتصادي" (Breton, 2006, p.3) ، لذلك "يُطرح فعل الإقناع بصفة عامة بوصفه البديل الممكن لممارسة العنف المادي".

من هنا يتضح أن المنازعة التي تتوسل بالعنف لحسم الخلاف هي المنازعة التي تضاد الجماعة الإنسانية، وتفضي إن عاجلا أو آجلا إلى خلخلة الجماعة وتقويض أركانها . أما المنازعة التي تعمد إلى آليات الحجاج والإقناع من أجل البحث عن الصواب الجماعي في الرأي والموقف هي المنازعة التي توافق مقتضى الجماعة ، بل وتكون سببا رئيسا في دعم أواصرها وتقوية أركانها؛ لأنها تقوم على الإقناعية بما هي دعوة الغير إلى المشاركة في اعتقادات أو مواقف يعتقدها العارض بعيدا عن أساليب الإكراه ومنهج القمع، وإنما وفق سبل استدلالية مقبولة كفيلة ببيان الغرض من الحوار، ومنضبطة لقواعد التخاطب كما وكيفا وجهة وعلاقة ، ومنبنية في كل ذلك على المبدأ العام للحوارية، ألا وهو مبدأ التعاون[2]؛ أي تعاون كلا الطرفين المتخاطبين في بناء معرفة نظرية مستندين في ذلك إلى ما تقرر لديهما من معارف مشتركة حول موضوع المخاطبة، ومنضبطين في سياق ذلك لجملة القوانين المنهجية التي تحكم هذه العملية برمتها، سواء من جانبها التبليغي أم من جانبها التوجيهي والأخلاقي كما ألمعنا إلى ذلك. حتى إذا لم يقتنع المعروض عليه بهذا الرأي رده على قائله العارض، بل وتولى هو بنفسه إطلاع العارض على رأيٍ غيره، مخالف له ومتعارض معه (طه، ص 31).

5 ـ الحوار الاختلافي وسؤال " المساواة " بين المتخاطبين.

لما كان الحوار الاختلافي ينضبط لقوانين التخاطب في التبليغ ولقواعد الحجاج في التدليل، ثبت أن هذه القوانين تدخل على المتحاورين معا من دون أن يكون لأحدهما مَزِيَّة على الآخر. إن دخول هذه القوانين بالسَّوِيَّةِ ـ كائنا ما كانا المتخاطبان ـ يجعل التفاضل الوحيد الممكن بينهما هو أسبقية أحدهما إلى الصواب وظهوره على يده، وحتى هذا التفاضل، هو على الحقيقة تفاضل نسبي، لأن مبدأ التعاون يقضي بالمشاركة في بلوغ الصواب وابتدار أحد المتحاورين إلى قبوله وقد ضفر به غيره، بحيث يجعل علاقته به لا تختلف عن علاقة صاحبه به ، " وعلى هذا فإن الحوار لا يُفَرِّقُ أبدا بين المتحاورين بل يساوي بينهما على أكمل وجه "(طه،2002 ، ص 36) ، كيف لا وقد تقرر

(2) انظر بهذا الصدد مقالة بول كرايس " المنطق والحوار" منشورة في كتاب Livensen, Pragmatics 1984,
مونة، أحمد. (2019). من التسامح الديني إلى التعارف الثقافي بين الأمم: قراءة في المفاهيم. الدراسات العربية الأوراسية، ٧، ص ص ٧٥-٨٩.

أن الرغبة التي تحدوهما معا هي رفع حالة الاختلاف في رأيَيْهِما . ولعل حفظ هذا الغرض أثناء ممارسة الحوار يؤدي إلى نتائج أقلها زيادة معرفة الجانبين برأي بعضهما البعض . وهذا الأمر كاف في دفع كل أسباب الفُرقة الراجعة إلى الشعور بعدم المساواة في الحقوق والواجبات بين الأفراد والمجتمعات .

6- الضوابط المقننة للحوار الاختلافي. يمكننا حصر جملة الضوابط المقننة للحوار الاختلافي في العناصر الآتية :

– المعارف المشتركة بين المتخاطبين، والتي يقصد بها:

1 ، مقومات المجال التداولي المشترك بين أفراد جماعة تنتمي إلى ثقافة معينة، وهذه المقومات تكون متفرعة عن لُغَةِ هذه الجماعة و عن معتقداتها وحضارتها وتاريخها بشكل عام .

2 ، التاريخ الإنساني المشترك الذي ينتمي إليه كل فرد من أفراد الإنسان، وهو ما يعد من قبيل المعارف المشتركة بين الجميع .

– التدليل بالطرق المقبولة؛ وذلك بالإتيان بمقدمات صادقة ، واعتماد أساليب في الاستدلال والحجاج مناسبة ومقنعة،

– صيانة حرية الرأي والاعتقاد لكلا الطرفين المتحاورين.

– ضمان حرية الانتقاد كذلك، وذلك بتمكين كلا الطرفين من توجيه ما يَرَيَانه من وجيه النقد للآراء والمواقف المعروضة.

فإذا تقرر أن المتحاورين يقفان على قدم المساواة في بناء الأدلة عرضا واعتراضا، فهل الأمر هو عينه على مستوى الاعتقادات والمشاعر الإيمانية، فهل المعتقدات الدينية للأفراد تكتسي الصبغة نفسها من حيث المساواة وعدم التفاضل؟

7 ـ مبدأ التفاضل بين الأديان .

يصدر الفرد المتدين في ممارسة شعائره الدينية عن مبدأ عام مفاده، أنه يتدين بأصح عقيدة في زمانه، وأن الشعائر التعبدية المتفرعة عليها والتي يمارسها هي أفضل الأعمال تَحَقُّقا بقيم التعبد، كما يرى هذه الأفضلية عدلا، ما دام أن المساواة المطلوبة في هذا المقام لا تمس هذا المبدأ، وإنما تتعلق بالتساوي في واجب المعاملة بالمثل في نظر المتدينين بعضهم لبعض، إذ عليهم حسب الفرد المتدين واجبات على رأسها:

– أن يعامِلوا غيرهم بما يعامِلوا به أنفسهم،

– أن يتسلموا بأنهم متساوون جميعا في حق الحرية في الاعتقاد؛ فلهم بمقتضى ذلك أن يعتقدوا ما شاءوا ما لم يضروا باعتقاد غيرهم (طه،2012 ، ص 62).

أما بخصوص المنتمي لدين الإسلام فإنه لاشك أن الأفضلية التي يشهدها في دينه هي من أكملية هذا الدين في اعتقاده والذي تسنده جملة من آيات الوحي التي تنص على أن كمالية أديان التوحيد

تمت مع ظهور الدين الخاتم 3، كما أن هذا الدين في اعتقاده هو أقرب الأديان إلى الذاكرة الجماعية الأصلية التي بها يتوسل الكائن الإنساني إلى عالم الغيب .

واعتبارا لمبدأ الأفضلية هذا الذي يسند ممارسة المتدين في الحياة، تَبطُل دعوى تكافؤ الأديان التي يروج لها العديد من الدارسين إن على مستوى الأفراد أو على صعيد المؤسسات، والذين يقرون من غير تردد أن " الأديان إنما هي أنساق أخلاقية تقليدية ، وطقوس غيبية تتكافأ أو تتعادل فيما بينها، زاعمين أنه لا يجوز ترجيح بعضها على بعض، لأن مسوغات الترجيح مفقودة فيها إذ لا علم معها ولا عقل فيها، وهما شرطان لقيام أسباب الترجيح. وما هذه إلا ظنون لا يقين فيها ولا طمأنينة معها، ويخفى على هؤلاء، أن الدين سبب لتوسيع مدركات العقل عندما يصطدم بنهاية التجريد، وأنه طريق لتوسيع دائرة العلم، لأن الأصل في الدين العمل، وبواسطة هذا العمل وهذه الشعائر تَعِنُّ للمتأمل فيه من دقائق المعرفة ومن خفايا النظر ما لا يسع لعاقل إنكاره أو رَدُّهُ. أضف إلى ذلك أن الأديان تتفاضل من حيث النوع فأديان التوحيد أفضل من أديان الشرك؛ لأن المشرك يقول في تشهده : أشهد أنك لست إلها!، وهذا أشنع أنواع الاعتقادات. كما تتفاضل من حيث الأطوار التي مرت بها وذلك بمقتضى قانون الوحي الذي يقضي بأن الطور اللاحق من هذا الدين يَفْضُلُ الطور السابق له، بحيث يكون خاتم هذه الأطوار أكمل الأديان التوحيدية طُرًّا.

8 ـ قاعدة " التفاضل في الدين والمساواة في التعامل"

إذا كانت خاصية التفاضل ملازمة للأديان جميعا فلا عجب أن يدعي كل متدين بأن دينه يتفوق على غيره من الأديان، وعليه فإن وجود هذا التفاضل بين الأديان لا يستلزم مطلقا وجود التفاوت في التعامل بين المتدينين.

لقد أفضى التغافل عن هذه الحقيقة الجليلة أن وَقَعَ المشتغلون بالأديان في بعضهم البعض بكل أشكال التباغض وكل صور التعادي والكراهية، ليس بين أهل الملل المختلفة فحسب، ولكن حتى بين أبناء الملة الواحدة؛ بحيث لم يكن يكتف المتدين بأن ينسب إلى نفسه أفضل دين أو أفضل تدين، بل كان يعتقد في تعجب شديد، أن من واجبه أن يُجبر الآخر على اتباعه، حتى ولو اقتضى الأمر قتاله أو إزهاق روحه. ولعل هذا ما حدا ببعض الفلاسفة إلى البحث في حقوق الأقليات الدينية، التي تؤول في نهاية المطاف إلى إشكالية تصادم الهويات. يذهب Gille Deleuze في كتابه (1990) "Pourparlers" إلى أن مفهوم الأقلية لا تفيد دائما معنى القلة في العدد، لذا وجب النظر إلى الأقلية باعتبارها وضعية؛ أي وضعية من فُرِضت عليه حالة القصور، وعليه فإن الأقلية هي القاصر التي ترفض الأغلبية أن يكون مستقلا ومسئولا، وتفرض عليه بالتالي هوية الأغلبية لأنها التي تملك حسب دلوز أنموذجا يجب التطابق معه " (مجلة الثقافة العالمية ،2015 ، ص 184)؛ لأن " الأقلية لا تملك أنموذجا Paradigm، أو بالأحرى، لا يتم الاعتراف بأنموذجها، أو يجري تشويهه والتقليل من قيمته "(مجلة الثقافة العالمية ،2015 ، ص 184).

(3) تأمل الآية القرآنية " اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا " المائدة / 3

مونة، أحمد. (2019). من التسامح الديني إلى التعارف الثقافي بين الأمم: قراءة في المفاهيم. الدراسات العربية الأوراسية، ٧، ص ص ٧٥-٨٩.

فإذا أقررنا بأن التفاضل بين الأديان مبدأ لا راد له، فكيف نجمع بين التفاضل الديني والتساوي في المعاملة؟

لقد دعا العديد من المفكرين سياسيين وقانونيين وأخلاقيين إلى ضرورة تحلي المتدين بقيمة التسامح معتقدين بكفاية هذه القيمة في تحقيق المساواة المنشودة بين المتدينين كافة، ناسين أو متناسين بأن مصطلح التسامح ينطوي على معنى " التغاضي عن الأذى المحتمل [والمُتَحَمَّل] من الآخر" (طه، 2012، ص 67)، كما أشرنا إلى ذلك من قبل [4]؛ وكأن المتسامح في وضع من يصبر على أذى المتدين الآخر " وليس صحيحا أن الآخر يؤذيني بمجرد تَدَيُّنِه حتى يستحق مني هذا التغاضي، لأنه ببساطة من حقه أن يتدين على طريقته، إلا أن يُتَعَرَّض لحريته في التدين. واعتبارا لكون التسامح يطوي الشعور بالتجاوز عن زلات الآخرين وعثراتهم أكثر مما يُشعِر بحفظ إرادتهم الدينية الحرة واختياراتهم العقدية الذاتية، بات المتسامِح ينزل منزلة أعلى من منزلة المُتَسَامَح معه، وبالتالي تترتب على هذا التفاضل اعتبارات سلوكية تمس بجوهر الممارسة الحرة للمتدين إزاء معتقداته، بل وتُشعِره دائما بوضع المخطئ الذي لا يُنظَر إلى سلوكه الديني بعين الرضا. وعلى هذا النحو يختفي الشعور بالمساواة بين المتدينين، وتتسلط هوية دينية غالبة على هوية دينية مغلوبة، والتي تبدو في نهاية المطاف وكأنها هوية أقلية باعتبار الوضعية لا باعتبار العدد كما يذهب إلى ذلك Gille Deleuze . إن الأمر يبدو وكأنه " معادلة تكاد تنطبق على الجميع مفادها أنه في حال صعود حضارة ما فإنها تقبل تعددية ـ الهويات ـ لأنها تكون واثقة من نفسها، والعكس صحيح في حال تراجع حضارة ما، فإنها تنبذ التعددية وتتقوقع على نفسها، وترى في الآخر شرا مطلقا، إما بسبب العرق أو الجنس أو اللغة أو الثقافة " (مجلة الثقافة العالمية،2015، ص 201).

وهنا تبرز أهمية الحاجة إلى " مبدأ المعاملة بالمثل؛ وهو مبدأ يقضي بأن يعامل المتدين غيره بما يحب أن يُعامل هو به " (طه، 2012، ص 68) ومعلوم أن لا شيء أحب للمتدين من أمرين:

– أن يعتقد ما يشاء،

– أن يظل اعتقاده موضع اعتبار من لدن الغير.

وأخذا بهذا المبدأ وجب على المتدين أن لا يكتفي باحترام غيره لعقيدته وإنما بأن يُكِنَّ نفس الاحترام لهذا الغير في حبه لعقيدته (تأمل الآية القرآنية, الأنعام) [5] ، واحترام تفضيل هذا الغير لدينه عما سواه، يقول المفكر الأمريكي Anthony Weston في كتابه A Rulebook of arguments: كلما درستَ ثقافات الغير إلا وأدركت تنوع وغنى العادات الموجودة، وكلما أدركتَ تنوع العادات استشكلْتَ عاداتِك ...، وكلما استشكلت عاداتك إلا وأصبحت أكثر تسامحا، والنتيجة: أنك كلما درست ثقافات الغير إلا وأصبحت أكثر تسامحا (Anthony Weston, 1992, p.13).

فإذا كان الدين هو من يقرر هذه "القاعدة الذهبية"؛ أي "واجب المعاملة بالمثل"، ظهر بطلان

(4) Tolarate; To bear, to suffer, to allow, to admit…وبالفرنسية Tolerer تعني Autoriser, permettre, Admettre, Supporter, excuser, Pardonner . exp; Par amour elle tolerait tous ses defauts.

(5) تأمل الآية القرآنية : ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم. الأنعام / 108.

وتهافت دعوى من يذهبون إلى أن الدين هو سبب النزاعات والحروب. واتضح أن االعكس هو الصحيح ؛ وهو أن الجهل بالحقيقة الدينية سَعَةً ورحمة، هو الذي يؤسس لهذه الفوضى الفِكرانية التي يشهدها عالمنا اليوم. إن الاعتقاد بوجود ثقافات ومعتقدات غير مفهومة بالنسبة لثقافات ومعتقدات أخرى يفضي في كثير من الأحيان إلى حروب ثقافية بسبب ازدراء هذه الثقافات بعضها ببعض.

إن الإشكال إذن مردود إلى عدم القدرة على التعامل مع مفهوم الوحدة والاختلاف بروح منفتحة؛ يقول الفيلسوف الفرنسي: Edgar Morin "كل الأفراد يتسمون بسمات مشتركة تضفي إنسانية عامة على البشرية على الرغم من أن الوحدة في الثقافة البشرية تخفي خلفها تنوعا لا متناهيا في المعتقدات والسلوكيات والطقوس والأخلاقيات وبذلك تكون الثقافة واحدة ومتنوعة في الوقت نفسه أي ما يصطلح عليه " بالوحدة المعقدة " Complacated Unity؛ فهي من جهة تقترن بقيم مشتركة كلية مع الثقافات الأخرى، كما أنها من جهة أخرى تبني نسقها الخاص من القيم والمعتقدات والعادات التي تربط بين أفراد جماعتها وتزيد في اعتقادهم بأنهم يشكلون جماعة متكاملة ومتميزة عن الجماعات الأخرى.

وبالجملة فإن المتدين مطالب بالإقرار بحق كل جماعة ثقافية في الوجود والتعبير الحرعن هويتها، بل إن واجب المتدينين كافة حماية وتنمية وتطوير هذا التعدد والتنوع ، وبالتالي الإقرار بحق كل فرد في الحرية والكرامة. ومعنى هذا الحق أن يُعامل باعتباره فردا متموضعا Individu situe (الزواوي بغورة ،2015، ص 9) [6]؛ بمعنى أنه فرد ينتمي إلى وضعية ثقافية واجتماعية معينة، ويتميز بجملة من المعتقدات والقيم، أو لنقل يملك هوية دينية خاصة .

الخلاصة

في ضوء ما تقدم يتضح لنا بشكل جلي أن استشكال مفهومي التسامح والثقافة على النحو الذي أسلفنا قد أفضى بنا إلى معاودة النظر في المضامين الدلالية لهذين المصطلحين وفتح لنا بالتالي الباب لاستثمار أمثل لهما، انتهينا بمقتضاه إلى تبين أن ممارسة التسامح بالمعنى السائد لا يلغي العلاقة التراتبية بين المتسامح والمتسامح معه وقد يكون هذا الأمر كما رأينا معيقا من معيقات التعارف الثقافي، لذا أقررنا مبدأ عاما للخروج من هذا الإشكال الذي يطال عملية التعارف الثقافي ألا وهو "مبدأ التفاضل الديني " كم بسطنا القول فيه ، كما أقررنا قاعدة رئيسة تحكم العلاقة بين الثقافات المختلفة ألا وهي قاعدة " واجب المعاملة بالمثل ".

نتائج البحث

هذا وقد أفضى بنا هذا البحث إلى النتائج الآتية:

– أن مفهومي التسامح والثقافة مفهومين مركزيين في فهم معيقات التفاعل الاجتماعي الناجع بين الثقافات المتباينة .

---

(6) الزواوي بغورة. التعدد الثقافي مفهومه ونظريته من خلال نموذج ويل كيمليكا، ص 9 ، عالم الفكر، العدد 2، المجلد 4 ، أكتوبر، ديسمبر 2015.

مونة، أحمد. (2019). من التسامح الديني إلى التعارف الثقافي بين الأمم: قراءة في المفاهيم. الدراسات العربية الأوراسية، ٧، ص ص ٧٥-٨٩.

– أن الوقوف على المضمون الدلالي لكلا المفهومين يحيل إلى آفات سلوكية عملية تمارَس ، من ذلك الإحالة إلى علاقة غير متكافئة بين المتخاطبين، مما يجعل أحدهما في مركز قوة وغيره في مركز ضعف .

– أن هذه العلاقة غير المتكافئة يترتب عليها أن ثقافة التسامح تكون في مرتبة أعلى من ثقافة المتسامَح معه ، علما بأن الثقافة بمعناها التقويمي الذي وقفنا عليه تعد روح هوية الإنسان ، وبالتالي ليس يمكن البتة أن تسمح ثقافة بأن ينظر إليها نظرة دونية .

– أن مبدأ التفاضل الديني مبدأ كوني ، لكون عدم شعور المتدين مثلا بأن ما يمارسه من ثقافة ومعتقدات يعد هو الأفضل ، لتساوت عنده كل الأديان ويكون بذلك فعله الثقافي أو التعبدي ممارسة لا تستند إلى مرجح ، لأنها ترجيح بلا موجب ، وهذا الأمر لا يستقيم في الأذهان .

– أن مبدأ التفاضل في الأديان هذا لا يلغي ألبتة واجب المعاملة بالمثل بالنسبة لجميع أنواع الثقافات سواء في اعتقادها ، أم فيما يتعلق بممارسة شعائرها أو تمثل قيمها الثقافية. وهذا هو السبيل الأنجع في نظرنا لتحقيق تعارف ثقافي مثمر بين أمم الأرض .

المصادر والمراجع

1. طه، عبد الرحمان. (2002م). الحق العربي في الاختلاف الفلسفي. بيروت: المركز الثقافي العربي.
2. طه، عبد الرحمان. (1987م). في أصول الحوار وتجديد علم الكلام. (ط1)، البيضاء: المؤسسة الحديثة للنشر والتوزيع.
3. طه، عبد الرحمان. (1998م). اللسان والميزان أو التكوثر العقلي (ط 1). بيروت: المركز الثقافي العربي .
4. طه، عبد الرحمان. (2012م). روح الدين، من ضيق العلمانية إلى سعة الائتمانية. بيروت: المركز الثقافي العربي.
5. مجلة الثقافة العالمية، ع. 179، شتنبر، أكتوبر، 2015، الكويت.
6. مجلة عالم الفكر، عدد 2 ، المجلد 44 ، أكتوبر، ديسمبر، 2015، الكويت.
7. Lalande, A. (2002). Vocabulaire technique et critique de la philosophie. Paris.
8. Levinson, S.C. (1983). Pragmatics. Cambridge University Press.
9. Breton, Ph. (2006). L'argumentation dans la communication. Paris: La Découverte.
10. Weston, A. (1992). A Rulebook for Arguments. Hackett Publishing Company.

11. Blay, M. (2013). Dictionnaire des concepts philosophiques. CNRS édition Larousse.

BIBLIOGRAPHIC REFERENCES

1. Taha, Abdel Rahman. (2002). Al-haq al'arabi fi alaikhtilaf alfilasifii [The Arab Right to Philosophical Difference]. Beirut: Markaz al-takathi al'arabi. (In Arabic)
2. Taha, Abdel Rahman (1987). Fi 'usul alhiwar watajdid eilm alkalam [In the origins of dialogue and renewal of the science of speech] (1st ed.). Casablanca: Al-muasasah al-hadithah lilnashr waltawzie. (In Arabic)
3. Taha, Abdel Rahman. (1998). Allisan walmizan 'aw altkwthr aleaqliu [Tongue and scale or mental reproduction] (1st ed). Beirut: Markaz al-takathi al'arabi. (In Arabic)
4. Taha, Abdel Rahman. (2012). Ruh al-din [Spirit of religion, from the secular tightness to the fiduciary capacity]. Beirut: Markaz al-takathi al'arabi. (In Arabic)
5. World Culture Journal, Issue 179, September, 2015, Kuwait. (In Arabic)
6. World of Thought Journal, No. 2, Volume 44, October, December 2015, Kuwait. (In Arabic)
7. Lalande, A. (2002). Vocabulaire technique et critique de la philosophie. Paris. (In French)
8. Levinson, S.C. (1983). Pragmatics. Cambridge University Press.
9. Breton, Ph. (2006). L'argumentation dans la communication. Paris: La Découverte. (In French)
10. Weston, A. (1992). A Rulebook for Arguments. Hackett Publishing Company.
11. Blay, M. (2013). Dictionnaire des concepts philosophiques. CNRS édition Larousse. (In French)

Информация об авторе

Доктор философских наук Ахмед Мона
Университет Абдулмалика Ас-Саади
Кафедра философии, исламской мысли и философии
Тетуан, Марокко
ahmed.mouna2011@gmail.com

Information about the author

Dr. Ahmed Mouna
Abdelmalek Assaadi University
Department of Philosophy, Islamic thought and civilization
Tetouan, Morocco
ahmed.mouna2011@gmail.com

معلومات عن المؤلف

دكتور أحمد مونة
جامعة عبد المالك السعدي
المنطق والفلسفة والفكر الإسلامي
تطوان، المغرب
ahmed.mouna2011@gmail.com

الكشف عن تضارب المصالح: يعلن صاحب البلاغ عن إنعدام تضارب المصالح.

Раскрытие информации о конфликте интересов: *Автор заявляет об отсутствии конфликта интересов.*

Conflicts of Interest Disclosure: *The author declares Conflicts of Interest Disclosure.*